

لما قرأت نيتشة

للقائد الفرزدق : اميل فاجيه

من أعضاء الاكاديمية الفرنسية

يتفق غالباً أن يشرح الفيلسوف خلقه حين يبسط آراءه . ويتفق أيضاً أن يجعل الفيلسوف من عواطفه نقطة ارتكاز يستقي منها أفكاره . ولما كان موهوباً « بملكة تبديل تلك العواطف الى أفكار فهو يجمل من جماع تلك الأفكار مذهباً » . وما المذهب الا الفكرة العامة للفيلسوف .

فاذا أحال الفيلسوف عواطفه الى فكرة عامة نظر الى ما حوله وتناول بالنقد كل ما يعترض تلك الفكرة . ويتناولها بالنقد الدقيق وبشدة لان مذهبه ليس في الواقع سوى عاطفة مستبدة به . وهو في غضون ذلك النقد يهتدى الى آراء مؤيدة لفكرته العامة

وتلك هي خطة السير التي اتبعها نيتشة في تكوين مذهبه . وهي خطتنا أيضاً في تعرفه ودراسته . وانما قرأت نيتشة بطريقة رسمتها لنفسى . وسواء أكانت هذه الطريقة صالحة أو غير صالحة فلم يكن لى غنى عنها لقراءته حتى النهاية . وأريد أن أقول قراءته ودرسه .

أظهر صفات نيتشة الخلقية أنه كان مخلصاً ومتكبراً وشديد الوطأة على خصومه .. كان مخلصاً صادقاً يمت الخبث وذلك الضمير غير المستقيم الذى هو ضرب من الخبث والمكر . كان مبتغاه أن ينظر في أعماق الآخرين بوضوح وبذلك الوضوح المطلق ينظر في نفسه أيضاً وفي المفكرات والمذاهب . وهو ما حمله على السخر من المانيا التي تعد الغموض فضيلة . وكان من شأن هذه الصراحة الفكرية أنها حضته على أن يرفع النقاب دائماً عن كل شئ . وان يتسائل على الدوام « ماذا وراء هذه الفكرة ؟ وماذا يخفى ذلك المبدأ » .

ولم يكن لديه شيء أهم من كشف العاطفة الداخلية وإظهارها مجردة .
ولقد افضت به صراحته الى ان يكتب ويقول اشياء مناقضة لفكرته
العامة بل ان تلك الصراحة قد صبغت كل ما كتبه بصبغة الاعتراف والاقرار
كان متكبرا الى أقصى حدود الكبرياء مقتنعا كل الاقتناع بتفوقه الفكري .
وكان يعتقد انه اسمى تفكيرا من الجميع وتملكه هذا الاعتقاد الى حد انه كان
يرى ان كل ما كتبه انما كتب للمرة الاولى وان سائر الافكار التي اخرجت
للناس لا قيمة لها البتة . ولقد اعتقد ايضا ان الرأي المستغرب (المناقض
للمألوف) سبيل الى الحقيقة .

وانما تأتي تعطشه الدائم الى الاستقلال من تلك الكبرياء . لم يكن يطيق
اي نير او اي قيد لا من الناس ولا من الاشياء ولا من العادات المتبعة أيضا
وقد اعترف بان طبيعته لم تخلق الا بحيث لا تطيق سوى العادات المتقلبة
حتى فيما يخص بحاجات الصحة الطبيعية .

وأخيراً تولد من صراحته وكبريائه نوع من الجرأة المحمودة والحرية
المقرونة بالشجاعة الادبية والاقدام على الجهر بالرأي جعله مشاكسا ميالا الى
الى العراك والكفاح . كان الرجل الذي يقول لك « اخطأت » من قبل أن
تحدثه . ويقول لك من بعد ان تحدثه « انا واثق من رأيي كل الثقة » .
ومن هنا تأتت كل مناقشات « نيتشه » . كان يتصف بالكثير من خلق
الفيلسوف « جوزيف دي ميتر »

كذلك كونت الطبيعة « نيتشه » فقد ولد ألمانيا دون ان يطلب ذلك
وألقي به بادىء الامر في أحضان الرومانتيسم ومدرسة الشاؤم وفي
مذهب « فخر » . وقد عبد كل ذلك من قبل ان يتنبه لنفسه . كان « جوته »
« وشونبهور » و « فخر » اساتذته الاول بل معبوداته . ولقد تأثر
في البداية كل التأثر من الرومانتيسم الالماني الذي يختلف كل الاختلاف
عن الرومانتيسم عامة ولا أقول خيراً ولا أسوأ منه . وانما أقول انه مزيج من
الاحساس الرقيق والعاطفة الحارة ومن الحلم الحزين الحلو . ويغلب الشعور

على الخيال في الرومانتيسم الألماني . وانغمس نيتشة في التشاؤم الذي هو نتيجة طبيعية لذلك الرومانتيسم الذي طال مدى اعتناقه واستعماله والذي غمره ذلك الشعور ببؤس الأشياء الدوي .

وبقي فردريك نيتشة زمناً طويلاً متحمساً لموسيقى « فخر » التي هي في الحقيقة موسيقى حية تصور الحياة بما فيها من تهيج وثورة وكل . وتصورها على الأخص في طموحها إلى الراحة .

وبالاختصار كان نيتشة رومانتيكياً كملت فيه كل عناصر المذهب . وقد لا يستطيع الفرنسي أن يتصور بوضوح معنى استكمال عناصر المذهب في الفكر . ونحن كلما بمدنا عن الرومانتيسم الفرنسي كان أظهر وأوضح . وازداد اقتناعاً بتلك الحقيقة . وهي ان الرومانتيسم الفرنسي أشد وضوحاً ونظاماً وحياة وحرارة . وان أكبر ممثليه قد اشتركوا في تكوينه . وانه جد متفائل عند زعيميه الكبيرين اللذين رفعوا رايته . ومتشائم من ناحية ثورته لا غير . ولم يكن هناك فلاسفة يعربون عن القليل من التشاؤم الذي انطوى عليه . وما كان « كونت » ولا « رنان » ولا « تين » متشائمين وأخيراً لم تكن ثمة موسيقى رومانتيكية فرنسية بالمعنى الصحيح . وعلى هذا الاعتبار اذا اتخذنا الرومانتيسم الفرنسي مثلاً لوجب علينا أن نطلق على الرومانتيسم الألماني اسماً آخر . ولو اننا اتخذنا الرومانتيسم في القرن التاسع عشر مثلاً للرومانتيسم الألماني لا حوجنا ذلك الى أن نطلق على الرومانتيسم الفرنسي اسماً آخر .

ولست لدينا في فرنسا فكرة عما كان عليه الشاب الألماني الرومانتيكي حوالي سنة ١٨٧٠ ذلك الشاب الذي غمره الرومانتيسم من كل نواحيه وبكل تأثيراته يتلقاه في الشعر وفي القصة والفلسفة وفي الموسيقى وفي الحديث والوطنية ويسره أن يرى الرومانتيسم شيئاً ألمانيا في جوهره وأنه جزء من الذخر الوطني ومجد ألمانيا القومي . وكذلك كان فردريك نيتشة قبيل سنة ١٨٧٠ .

ولم يكن ذلك في مزاجه . بل ربما كان ذلك في مزاجه إلى حد ما .

فقد كان ممرضاً سهلاً الانقياد الى الحزن كثير الغلو سريع التأثير بكل ما هو جليل وهائل . وهو الى ذلك مشته لم يوفق الا بصعوبة الى ترتيب أفكاره ترتيباً مادياً . وهو ذاتي الى حد الشطط . شديد الميل الى الادب الذي يكون اقراراً واعترافاً .

على ان نيتشة لم يكن رومانتيكياً في كل ما فكر وكتب الا نسبياً . بل لقد كان في بعض أقواله مناقضاً للرومانتيكية . كان ذا فكر إيجازي . سيال الى القاعدة . وهو بكبريائه أريستوقراطي . واذا كان الفن مافتيء أريستوقراطياً فان الفن الرومانتيكي أكثر شيوعاً وهو يوجه الى العاطفة لا إلى الآراء . وقد كان نيتشة مستقلاً ومهاجماً . وبينما كانت المانيا كلها رومانتيكية اتخذ ذلك حجة للتحويل إلى مذهب آخر . فتهحر من التقيد بالجماعة . وقد ذكرنا انه بمقت كل قيد .

تهحر من تأثير فرنسا باديء الأمر ثم تهحر من تأثير اليونان . أما من جهة التأثير الفرنسي فقد قاده اليه « جوته » الذي كان يحبه حباً جماً . وليس من الممكن مع ذلك المبالغة في تأثير « جوته » على « نيتشة »

وانا لنتبين « جوته » في كل مناحي « نيتشة » وفي أدوار تطوره الرئيسية . وتلمح شبح « جوته » المضيء يفيض دائماً على الفيلسوف الحديث . ولقد كان نيتشه دائماً التجوال في افياء « جوته » محاولاً بنجاح أخيراً الى تخطي تلك الافياء .

ومهما يكن من تهحره من التأثير الفرنسي فقد قرأ « مونتاني » الذي امتدح مزاياه وطريقته في معالجة الشيء بعينه بأسلوب جديد أكثر من مرة . وقرأ « باسكال » الذي استشهد به كثيراً و« لاروشفوكول » الذي تولى بنفسه طبع « عظاته » بتعليقات مستفيضة . وقرأ « كورني » الذي تعمق في فهمه كل التعمق . و« فولتير » و« فوفنارج » و« لابرويير » و« شالفور » و« فونتينيل » و« ستندهال » . وقد فتنه أولئك المؤلفون وارشدوه الى طبيعة فكرته الحقيقية . ولذلك نستطيع أن نقول ان نيتشة كان كلاسيكياً .

فقد جرت يراعتة بصيغ الفن الكلاسيكي فقال انه ليس ثمة أدب ذاتي وانه متى تكلم التأليف فما على المؤلف إلا أن يسكت. كان من انصار الحقيقي . ولكن ليس كل الحقيقي : فان النثر المجيد لا يستعمل إلا ألفاظاً من لغة الحديث ولكنه يحاذر أن يستعمل كل الفاظ تلك اللغة، وكذلك يتألف الأبناء البليغ — ولعل شاعر المستقبل لا يندش الناس إلا أشياء حقيقية ويهمل مادون ذلك من الاوهام واشباه الحقائق . وهو مايجات فيه قوة الشعر القديم . والحقيقة المرغوب فيها إنما هي الحقيقة المختارة . ولقد نثر على نظرية كاملة للفن الكلاسيكي الفرنسي مبعثرة الاجزاء في تأليف نيتشة وهو منذ ان وثق من ان الموضوع والترتيب والاختيار — من قواعد الكلاسيك — قد كان شبه وحى انزل عليه ففنته واستأثر بلبه فعبد طريقة القدماء . وآلى على نفسه ألا يحترم طريقة أخرى .

تري هل فرنسا هي التي قادته الى اليونان أو أن اليونان هي التي اعادته فيما بعد الى فرنسا ؟ الظاهر أن نيتشة درس الاغريق والفرنسيين في وقت واحد . قال إننا حين نقرأ « موتانية » و« لاروشفوكول » و« فونتينيل » وعلى الاخص كتابه « محاورات الموتى » « وفوفنارج » « وشامفور » نصير اقرب الى التقدم منا لو أننا قرأنا ستة مؤلفين آخرين من شعب آخر . فان أولئك الكتاب الفرنسيين قد أحيوا بتأليفهم روح القرون الأخيرة للعهد القديم . وان اجتماعهم ليؤلف حلقة هامة في سلسلة النهضة « رينسانس » العظيمة المتصلة . فقد ارتفعت تأليفهم فوق كل تغيير طارأ على الذوق الوطني وفوق الالوان الفلسفية . انها تحتوي على أفكار حقيقية تفوق كل ما احتوته كتب الفلسفة الالمانية مجتمعة ولو اني أردت أن أصيغ لها مديحاً قريباً الى الفهم لقلت انها لو كتبت باليونانية لكانت مفهومة من اليونانيين . » وبمقدار ما اثني « نيتشة » على وضوح الفرنسيين انتقد بمرارة غموض المفكرين الالمان ومبالغتهم وخشونتهم . وخص بنقده « جوته » و« شوبنهاور » . ويبدو من ذلك ان تأثر نيتشة بالفرنسيين نباهه عن الرومانتيسم الالمانى بل لقد ابتعد عن الممانيا نفسها .

منذ ذلك الوقت جعل نيتشة يتساءل عما إذا كان لدى المانيا كتاب
كلاسيك اعنى كتاباً عباقرة غير محدودى الفكر ذوى آراء عامة لاصلة لها
بمعصر ولا يمكن. وقد سيطروا على المستقبل بسمو افكارهم وقوة تعابيرهم لكي
يبقوا على الدهر. ولكي يظلوا عظماء لا تختفي انوارهم من بعد خمسين سنة من
موتهم. ومن الممكن ان يكون « نيتشة » قد ابتداءً ينكر وجود اولئك
العباقرة. وفي رأى له جاء فى كتابه « انسانى جد انسانى » للأدب الالمانية
سته اجداد عظماء قد شاخ من بينهم خمسة حتى لا مرد لشبابهم. واستثنى
منهم « جوته » ولكن ماذا أقول عن الخمسة الآخرين ؟ لقد شاخ
« كلوبستوك » فى حياته. ولم يعد احد يقدر اى قيمة جديدة لكتاب حياته
التفكيرية « جمهورية العلماء ». وكان من سوء حظ « هرذر » انه كتب
تأليف جديدة لم تلبث ان طوتها الشيخوخة. واما « فيلاند » الذى بدت
الادب الالمانى بعثا جديداً، فقد خبا تأثيره بموته. وما زال « ليسينج »
حيا الى اليوم. ولكن بين شباب العلماء فحسب. وقد خرجت تأليف « شيلر »
من ايدي الشباب لكي تسقط بين ايدي صفار الصبية الالمان الخ »

وكذلك كان يزداد نبو « نيتشة » عن المانيا بل عن الثقافة الجيرمانية
وصار يشعر بالانقياد الى مواطن الوضع واجواء الحرية. فى ذلك الوقت
حوالى سنة ١٨٧٠ - اهتدى الى اليونان. ترى هل كان حدث لديه
الميل الى الثقافة الاغريقية « ايلينيسم » وهو بعد طالب فى الجامعة ؟ انه
ليهمنا ان نقف على حقيقة ذلك. على ان التربية الفكرية الوحيدة ذات القيمة
انما هي التربية الثانية التى يعطيها المفكر لنفسه. وان الميول الحقيقية، الميول
العميقة التى تبقى مدى الحياة هى التى تتكون من سن العشرين الى الثلاثين
وقد ذكر نيتشة فى مقدمة كتابه « اصول التراغوديا اليونانية » انه تعشق
الثقافة الاغريقية حوالى سنة ١٨٧٠. وان تعشقه العميق لها بلغ حد العبادة
وكان ذلك بالنسبة اليه مطلع فجر جديد. بل لقد كان اطلاع على الادب
الاغريقى بدءاً لازمة الفكرية والادبية العظيمة التى اتت به.

ولقد أراد « نيتشة » ان يقف على الاصول العميقة لفن انتراغوديا عند
الاثنين . الاصول السيكولوجية لذلك الفن والحالة النفسية التي يوجدها
عند الذين يعالجونه مؤلفين كانوا أو ممثلين . فاستطاع أن يكون فكرة —
غير صحيحة في نظري — ولكنها مبتدعة وهامة وغزيرة النتائج عن الروح
الاغريقي . وتتل بهذه الفكرة وفتن بها وجعل منها مذهباً فلسفياً واجتماعياً
وخفياً . وفي الحقيقة ان « نيتشة » كله في كتابه « أصول انتراغوديا
الاغريقية » .

أما الفكرة التي كونها « نيتشة » بسد محاولات وغموض غير قليل عن
الفن التراجيقي والاغريقي والروح الاغريقي فأنها تتأخص فيما يلي :

كان هناك عنصر بشري لم يحب غير الجمال والحياة . وقد أحب على الاخص
الحياة . الحياة القوية المرحية المتجسمة المقرونة بالظفر والمجد . وهو ما يطلق
عليه اسم الروح الاغريقي . الا أن ذلك العنصر أحب ايضاً الجمال والبراءة ونبل
الموقف والاباء والشهم وهدوء النظر . وهو ما يطلق عليه اسم الروح الابولينية
(نسبة إلى ابولو) . وتجتمع هاتان الحالتان في المخلوق الاوليمبي . والاوليب
هو مقر المخلوقات السامية . الاحياء الذين أوتوا غاية القوة ومنتهي الجمال .
والذين أوتوا النعيم المقيم . خالدين مرفهين بكل ملاذ الحياة الابدية . فالاوليمبي
هو المخلوق السامي الذي اجتمع له الجمال والنبل والعظمة والخلود . هو نموذج
اليوناني وقد توخى اليوناني في حياته وفي فنه الاقتراب من ذلك المثل الاعلى .
وعمل على ان تجتمع في الطراغوديا حالتا العنصر الوسط والعنصر الاوليمبي .
وقد وضع الحالة الاولى في الاناشيد والحالة الاخرى (الابولونية) في
الاشخاص . وعلى كل حال فقد توخى قلوباً من قوالب الفن اجتمعت فيه الحياة
والجمال واتحدا اتحاداً عميقاً . وحيث تبدي الجمال حياً متحركاً عاملاً
وحيث تجلت الحياة في الجمال . وفي الجمال دائماً وفي كل ضروب الجمال :
الموسيقى والشعر ونبل المواقف اتحاد صميم للحياة والجمال في الطراغوديا
اقترب به الاثينيون إلى المثل الاعلى الاوليمبي .

وحتى في حياتهم بالذات سعى الاغريق في تحقيق ذلك الاتحاد الذي كان منيهم . حققوه في عملهم الحربي (الفتوحات) وعملهم السياسي والاستعماري وعملهم الاداري . وكانوا يحملون مع كل ذلك الفن دائماً . فن الشعراء . وفن الحفارين . والمهندسين . وفن المصورين . ولقد تمتعت اليونان حياتها وفنهم على العالم ، وكانت ترى العيش في الجمال الغرض الاسمي . وأرادت ان يعيش العالم على مثالها . يعيش في الجمال . ذلك كان شغافها وإرادتها الدائمة .

ومن الممكن ان نعد انتراغوديا الاثينية الواسطة الى ذلك . بل لقد كانت الصلة بين سماء اليونان وارضها . وكانت انتراغوديا الاولمبية تقول للناس . كونوا اولمبيين . لتكن الحياة والجمال على الارض كما هما في السماء (الاوليمبي) . الحياة والجمال السماوي ترشد اليهما انتراغوديا على الارض .

— ولكن ألم نوضع في انتراغوديا اليونانية اشياء كثيرة . أولم يسع الاثينيون إلى شيء آخر في انتراغوديا غير استمطار الدموع الغزار كما قال « هوميروس » وارضاء حساسيتهم ؟

قال « نيتشة » : كلا . حسبك ان تقرأ « أفلاطون » و « ارسطو » لكي ترى كيف كان الاغريق يفهمون الطراغوديا في جوهرها حتى في حالة عدم اتفاقهما فلقد نفى افلاطون الشعراء من جمهوريته خشية ان يترى التخنث العنصر اليوناني القوى الممراح . خشى علي اليونانيين من تأثير مبالغة الشعراء في التباكي والعويل المصطنع . ولكن جاء ارسطو على تقيض أفلاطون دائماً ودافع عن انتراغوديا مؤكداً أن التأثير في الناس باشياء مصطنعة يطهرهم من تلك الحساسية الكاذبة التي يصطنعها الشعراء . ويرجعهم إلى الحياة القوية المرحية . ويتبين من هذين الرأيين أن الحكيمين إنما ارادا عنصراً قوياً عاشتاً للحياة وكلاهما أراد أن لا يكون للفن تأثير معاكس فيضعف ويخمله .

واضاف « نيتشة » إلى ماتقدم أن ذلك الذوق في العنصر اليوناني إلى الفن الاولمبي إنما هو ذوق منفعهم بالتأثير الحزين المروع مظهر للبؤس

الانسانى . دال على أن لا خوف من وطأة ذلك البؤس والألم على العنصر اليونانى القوى .

وأنه لا يتطلب خواتيم مفرحة . ولا أكاذيب متفائلة . وأنه عنصر واثق من نفسه كل الثقة بحيث يرى البؤس الانسانى ويجد فيه مسرة تنطوى على الجمال الغنى لا تؤثر فيه اى تأثير موهن . وأنه من الممكن ان يسر برؤية البؤس الانسانى سرورا يتفق مع رجولته وقوته . تأثير صحى يتخطى به « المقابر الى الامام » حسب تعبير « جوث » . ولم يكن العنصر اليونانى يتطلب من الفن عزاء ولا مخدر انما كان كسائر العناصر القوية يستسيغه على انه علاج مر ومطهر .

تلك هي الفكرة التى ظفر بها « نيتشة » عن الفن الاغريقى . وهى التى تأملها فزعزعت عقيدته فى كل ما حصل عليه من المعلومات . فلقد علموه الرومانتيسم الالمانى اى فن الاسى والعيويل . فاما اهتدي الى التراغوديا اليونانية رأى عنصرا قويا وفنا للجمال بعيد الغور شديد الاتصال بالحياة القوية المنبعثة . وهو ما يناقض الرومانتيسم وقد علموه التشاؤم اى الاعتقاد بان الحياة شر . فلما اطلع على ثقافة الاغريق رأى فنا وعنصرا ثملا بحب الحياة . فنا وعنصرا متشبعين بالتفاؤل

علموه موسيقى فتن بها فى اول الامر ولكنه صار الآن يمجها لضعفها وانزعتها . وقد اطلع على فن وعنصر حيث يستشعر من الموسيقى روح الحياة المتحمسة الشديدة وحيث تقترن بضروب من الرقص الدالة على الرجولة والفرح والبطولة فاحس نيتشة بان عقيدته فى معلوماته الاولى قد تزعزعت وانهد ركنها .

ولم يكن ذلك بلا اسف احس به « نيتشة » حين ارجع البصر كرة الى الوراء . صار فى حالة ازمة . فانه برغم كبريائه ومزاجه المشاكس الميال الى العراك عهد الاسف الذى يحسه المرء حين ينفصل عن بلده او عن حزبه او نادية . اسف لم يسلم من الشعور به اى انسان ذى شخصية . تقول انه برغم

كبريائه لم يكن يخلو من وداعة واحترام للمعلم يتسیر به كل تلميذ ألماني . ولم يلبث ان حذر نفسه من كل التأثيرات التي ثقلت وطأها وتجرد بالشجاعة الأصلية فيه من كل سيطرة للأفكار التي حصلها . واخذ يواصل طريقة بمفرده قال « ولما ابتدأت السير بمفردي جعلت انتفض . ولم يتض على وقت قصير حتى مرضت ومالت البقاء في حالة الوهم الذي تكابده نحن معشر المعاصرين وسط كل ما يشير حماستنا .

مالت واشمازت نفسي من التبخث والتسوية والحماسة الفارغة في ذلك الروماتيسم . وتلك الاكاذيب الايديالية واضعاف الضمير المتغلب على التأثيرات الشائعة في العصر الحاضر . واحسست انه قضى على أن اكون أكثر انفراداً من ذي قبل .



دعا نيتشة الناس جميعاً الى حب الحياة . الحياة القوية الفعالة . وحب الجمال المنطوي على القوة . قال « ابذروا الحياة في كل مكان . والى الحياة وجهوا جهودكم . ضعوا أكبر مقدار من الحياة في هذا العالم » ولم يكن نيتشة سوى صورة مهتاجة من « جوث » وظل يعتقد انه اذا كان للعالم حاسة فانها حاسة الجمال ولا يمكن أن تدرك إلا على أنها مظهر لارغبة في الجميل . وليس هناك من يفهم الحياة غير الفنانين . ونحن اذا أردنا في آخر الامر أن نفهم العالم على اعتبار أنه مظهر للعدالة أدركنا في الحال عقم مجهودنا لانه من الثابت أنه ليس في العالم مظهر للعدل . واذا أردنا أن نفهم العالم على أنه مظهر للخلاق الحسن لم نلبث أن نرى رجاءنا قد ضل لانه ينبغي لنا أن نتفق على أنه ليس في العالم ظل للاخلاق . واذا أردنا أن نفهم العالم على أنه مظهر للصالح والطيبة وان نقول مع افلاطون « ان الله خلق الدنيا طيبة منه وكرما » انحدرونا إلى مهاوى السخر لأن من المحال إدراك أن قوة عظيمة تخلق المخلوقات طيبة منها لكي يتألموا .

الا أن الاعتراضات تنحى ووجود المحال تلاشى حين تنظر الى العالم على اعتبار أنه مظهر للجهال . وأما مسألة الشر في الارض فانها لا تكون متى قلنا ان الجمال سبب الوجود . والجمال وحده ينزه الخالق من كل شيء لانه فنان . قال أنه لا يمكن أن يكون الوجود منزهاً إلا اذا اعتبرناه مظهرًا للجهال وان العالم الذي لا يقبل الادراك على اعتبار أنه مظهر للعدالة وللصلاح وللخلق « موراليتي » يصير قابلاً للادراك متى نظر اليه على أنه مظهر للجهال وهو الجمال في اسمي مظاهره (وقد نأتض نيتشة هذا الرأي فيما بعد . على أن متناقضات نيتشة يمكن الفصل فيها) والاحساس بالعالم انما يكون في تتبعه والاتجاه اليه . الاتجاه الى الحياة والى الجمال والى الفرح . وانه ليس أجل من الاتصال بالارض وعدم الاعراض عنها والاخلاص لها .

« استحلنكم أيها الاخوان أن تخلصوا للارض . ولا تصدقوا الذين يمنونكم بآمال فوق الارض انهم يدسون لكم السم من حيث لا تشعرون . انهم ممن تعبت منهم الأرض لانهم يعبثون بحياتهم وحياة الناس . اخواني . كونوا مخلصين للارض بكل ما عندكم من فضيلة واحبسوا فضائلكم عن التحليق الى أسوار الابدية فكم من فضيلة ضالة بين الارض والسماء . فاعيدوا مثلي الفضيلة الضالة الى الارض .

وقد رأي نيتشة ان واجب الانسان ان يترقى الى ذاته ان يصل الى ما يحس أنه قد صار اليه . والغرض أن نجيب دائماً نداء الوجود . وليس الغرض أن تقبله على علاته لان ذلك ضرب من احتماله . الغرض أن نحبه وان نعتنه بشغف .

وفي الحقيقة أنا اذا فكرنا في التشاؤم ومذهب المثل الأعلى « الايدياليسم » والمسيحية وسائر وجوه التجرد من العالم كما هو المأراأنا فيها غير صور الالتجار انما على الاقل من عوامل التفرقة . ان الانسان لينتقل من الحقيقي الى الخيالي كما ينتقل الشعب من المدينة الى الجبل المقدس وهو انما يسميه مقدساً لجرداته يعتزل فيه . لانه ضريح .

وشأننا في الوجود أن نتقبله بسرور وان نذهب في مذاهبه وان
نساعد علي ترقيه ومجد حركته واتزانه وتناسبه . قال « إني لأرغب في
الدنيا كما هي . وأرغب فيها دائماً . ولا أفناً أقول » :

هات : ليس لي وحدي بل لجميع النظارة
علي أنه لا يكفي أن ترضى بالدنيا لكي ترضى بك . يجب أن تكون
مستعداً لحبها وكفاحها في وقت معاً .

ولقد تنقّب هذه القاعدة للحياة ضدك . فانك حين تسعى للحياة القوية
المتسعة المدي تلتقي العناء والالم والجرح . ولكن اليس التفاؤل التام الصحيح
يحمل معه الشر ؟ اذن يلزم أن نعيش في خطر . (وهي أجل عبارة نطق بها
فهم إنساني) يلزم أن نعيش في خطر لكي نتذوق الحياة في أكل صورها
بل لكي ندري ماهيتها .

« صدقوني ان السر في أن تحصّدوا من الحياة اكبر مقدار من السرور
انما يكون في التعرض للخطر . شيدوا مدائنكم على مقربة من « الفيلاف »
ارسلوا سفنكم الى البحار التي لم يجزها أحد . عيشوا في حرب مع أمثالكم
ومع أنفسكم . اغتصبوا بالقوة مالا تستطيعون امتلاكه أنتم يامن تنشدون
المعرفة . وسرعان ما يمضي الزمن حيث تسرون بالحياة مخفّفين وسط الغابات
مثل الخرافيت الشاردة »

اما الموت فلا مزية فيه . انه جزء من الحياة . وغايتها وجزائها . واذا
كان هو آخر شعلة من الحياة فانه اسمى شعلة . قال « ان اجل حياة للبطل
هي ان ينضج للموت في ميدان الكفاح » ألا ايها الموت . اين مجدك ؟
لمعمرى انى لا اراه . انى لا تعمر واكون مجيداً بالموت .

ولقد خص نيتشة نصف كتاباته تقريبا بتمجيد الحياة وحبها . وهو ما
لا يحتاج الى شرح . وهو جميل من وجهة الفن . حب الحياة في الجمال والجمال
في الحياة .

والى هنا لا تزال فكرة « نيتشة » عند حدود العاطفة . ولقد سحره
 كمنان جمال الحياة الاغريقية كما فهمها فصار عاشقا للجمال والحياة الطليقة
 القوية . وتوصل من ذلك الى شعوره العام بالوجود . وانه لا بد للانسان
 من ان يعيش بكل قواه وان يخلق الجمال الحي في شخصه وفيما حوله
 باستعمال قواه كلها استعمالا جريئا . وهو رأى صائب .
 ولم يمت « نيتشة » ان يلاحظ جميع العوائق التى تحول دون الحياة
 فى القوة وفى الجمال . الحياة كما اطلع عليها فى تاريخ الانسانية الاغريقية .
 وقد تناولها بالهدم دفعة واحدة . ومعنى تناولها بالهدم انه برهن على استحالة
 أو سوء نتائج وظلم ما شملت عليه النظم والآراء الانسانية من معارضة
 التناول ومنع الانسان دون أن يعيش فى حرية وفرح وقوة وبطولة وجمال .
 اما تلك العوائق فلا تكاد تحصى . أولا : احجام الانسان وتردده فى البحث
 عن الحقيقة . احجامه وتردده امام المعرفة . فلسنا لعمرى مفكرين صادقين
 صريحين . انا لتخوف من الحقيقة . بل ربما كنا نعتقها كما قال « باسكال » .
 ويندر أن نتناول الحق بجرأة . ذلك لانا نعلم انه لا يخلو من أخطار . واخطاره
 توازي مسرانه . وانه لمن الممكن أن نكتب تاريخاً لم يكتب وهو تاريخ « دون
 جوان المعرفة » . وليس هو تاريخ « مونتاني » ولا « سانت بيغ » ولا
 « رنان » . إن التاريخ الكامل لدون جوان المعرفة انما ينحصر فيما يلي
 « لقد أخطأه حب الاشياء التى اطاع عايرها ولكنه ذو عقل وشعور جهم »
 فنعم بسيد المعرفة وطاردها إلى أقصى الكواكب واسماها (وهذا يقف
 تاريخ « مونتاني » و « سانت بيغ » و « رنان ») وحتى لم يبق لديه فى
 آخر الامر شيئاً يصيده إلا ما هو جد مؤلم فى المعرفة مثل المدمن الذى ينتهى
 الى شرب « الابسنت » ممزوجاً بالماء . وهو من أجل ذلك ينتهى به الامر
 إلى الرغبة فى الجحيم وتمنيه . وتلك لعمرى آخر معرفة تفتنه . وإذ ذاك لا بد
 له من الوقوف عند حدود الابد . إذ ذاك يصير نزىل الحجر . ويتمنى عشوة
 من ليل المعرفة . عشوة ان تهبط اليه قسمة ! لان دنيا الاشياء بأسرها لن
 تجود بلغة تعطيها ذلك الجوعان المتعطش »

وانه لمن السهل أن ندرك ذلك التخوف من الخيبة التي توقف الانسان عند بداية البحث الشخصى عن الحق . ولقد نهتدى في هذه الدائرة الى الجبن العام للانسان . إنه جبان أمام الحقيقة . ولكنه لا ينبغي أن يكون الانسان حيوانا لان خشية الهزيمة انما هي في الواقع هزيمة قبل خوض المعركة . انما يتحتم البحث عن الحقيقة ببسالة وبحب جم لها . حب سابق للمعرفة يوازي حب ذلك الامير الذي تعشق أميرة بعيدة لم يرها . وليس للحياة معنى في غير البحث عن الحق . وانا لن نظفر بالحياة صالحة طيبة الا منذ الوقت الذي تذوقها فيه على هذا المعنى قال نيتشة « كلا » . ان الحياة لم تحيب رجائى : لقد وجدتها أغنى مما كنت أظن وأحب الى نفسى وأشد خفاء منذ اليوم الذي علمت فيه أن الحياة يمكن أن تكون تجربة لذلك الذى ينشد المعرفة . وتكون مجرد تجربة لا واجبا ولا قدرا محتوما ولا خديعة . وان المعرفة نفسها التي تكون للآخرين سريرا للراحة أو سبيلا الى الراحة والاهو انما هي عالم مليء بالاخطار والانتصارات حيث يكون للمواطن الجريرة الباسلة مقامها في الرتص وفي اللعب : لعمري أن الحياة وسيلة للمعرفة وبهذا المبدأ حين نجمله في صميم القلب لا نستطيع أن نعيش ببسالة فحسب ولكننا نعيش أيضا في فرح ومتاع . وكيف نريد أن نسر وأن نضحك ونبلغ الغاية في الاستمتاع والفرح اذا لم نرد في بادىء الامر الحرب والفوز؟ .

انما يلزمنا أن نبحث عن الحق بصدق واخلاص وان تعشق الحقيقة لذاتها مهما كانت . بل ينبغي أن نحجبها لذاتها وانما لكي نعارضها ونعاديها . ولا بد للانسان من أن يناقض نفسه .

وحسب هذا الرأي أن يفسر متناقضات نيتشة — وهو انما يناقض نفسه عن صدق واخلاص . ويلزم ان يتقبل المرء تقيض رأيه وانخص ذلك النقيض وتقدير قيمته .

على أنه ينذر أن يكون في الناس ذلك الاخلاص في البحث عن الحقيقة . وهم بوجه عام يريدون أن يخذعوا ويخذعوا . ولقد ضرب نيتشة المثل

بصدقه وإخلاصه في البحث عن الحقيقة . وفي رأيه ان الانسان شقي وانه يحتاج الى الأيزيد في شقائه إمدم اخلاصه للمعرفة . وان حب ماليس بالحق أو الجبن في تمحيصه عائق ضد الحياة في القوة وفي الجمال . وأنه يتحتم القضاء على ذلك العائق .

. ثم أشار نيتشة الى العادة فوصفها بأنها تعترض الوصول الى الحق والى المعرفة بل الى الحياة القوية المميزة بالجمال . وقد أراد بالعادة مايسمونه بالتقليد « تراديسيون » . فان الانسانية تعيش في ماضيها الذي تلقته بالعادة . وان ذلك الماضي ليس سوى خطأ محض . قال ان الانسان يربى باخطائه . وان تلك الاخطاء قد صارت أساساً لطبيعته لا يستطيع ان يتجرد منها . وانها تدوم وتطول وتصادف حقائق تختلط بها وتختلف بذلك اخطاء جديدة أشد خطورة مثل كل خطأ يمتزج بالحقيقة ويحصل على شيء من التصديق . وان نشأة الانسان باخطائه يجمعه بحي حياة ناقصة مبتورة . ومن هنا كان ادراكه لقاعدة للحياة لا تقبل التطبيق أو تطبيق تطبيقاً سيئاً وتساعد على أن تعطيه فكرة ناقصة عن نفسه . ويقال من جهة أخرى انها تساعد على خلق الصفات الخيالية مثل المقدرة على النظر الى المستقبل او ادراك ما فوق الطبيعة . ومن شأن هذه الاخطاء ان تشر قواعد للحياة تبقى مع الانسان وتعمل على خدعه وغشه .

ويشعر من جراء ذلك ايضا انه في علاقة كاذبة بالطبيعة والحيوانات . ويحس بانه جد مختلف عنها . وان ثمة تباين عظيم بينه وبين سائر الطبيعة . هذا الخطأ او النظر الكليل يوجهه في اتجاه غير صادق . اتجاه مضل .

ويكاد يكون الخطأ مهد للانسان . ومنشأه يرجع الى العادة التي تحفظ في الانسان المذهب كل ما هو طبيعي ولازم للانسان الفطري .

وليت الامر كان مقصوراً على العادة . فهناك ايضا اللغة . اللغة التي هي لسجن الفكر . اللغة التي تسجن فكر اناسي اليوم في فكر اناسي الماضي . اذ لا تبيح للمحدثين ان يعربوا عن آرائهم الا في النماط الماضية . انها لا تهب .

فكرتني حين تصدر الا المنفذ الذي صدرت منه افكار اجدادى الغابرين :
 لقد تضطرتني الى اخذ رأى ديكارت للاعراب عن رأيي : فاللغة عامل محافظ
 على الاخطاء القديمة او الحقائق القديمة . انها لخطر عظيم على الحرية الفكرية
 ولعل اهم عائق انتقده « نيتشة » واثمهم من اجل ذلك بانه فوضوى انما
 هو المجتمع الحديث . ولم يكن « نيتشة » فوضوياً ولا عدوا للمجتمع .
 ولكنه رأى بحق ان كل المجتمعات الحديثة بل كل المجتمعات منذ زمن
 طويل تعترض مذهبه علي خط مستقيم : وتعترض مذهبه بطبيعة تكوينها
 ونظامها نفسه . فان المجتمعات الحاضرة ملكية كانت او ديموقراطية لا ترمي
 الى جعل الانسان يعيش في حرية وفي قوة وجمال . انما غرضها ان تساعد
 علي أن يعيش اكبر عدد ممكن من الناس : وهو ما يدرك من سيرها العام
 ولا قدرة للمجتمعات الحديثة الا على تمكين جميع الناس من حياة بسيطة
 محدودة تعين على التوالد والتكاثر وأن يكون لكل مركزه الصغير
 وكوخه ودائرة تطوره المحدودة ولعل المثل الاعلى لكل مجتمع من تلك
 المجتمعات لا يتعدى المثل الاعلى لمدير احدى المستشفيات الذي يقيس درجة
 الهواء الذي لاغنى عنه للمرضى .

وقالما تهتم المجتمعات الحديثة للنوع مقدار اهتمامها بالكم . انها لا ترغب
 في عمل شيء عظيم ولا جميل حتى ولا صالح انما ترغب في اخراج كثرة
 عديدة .
 (للكلام بقية)